المحاضرة الأولى :مدخل

البلاغة العربية مصادرها ومدارسها:

أولا- العلوم المؤسسة للبلاغة العربية:

هناك عدة علوم ساهمت في نشأة البلاغة وإرساء معالمها، وجعلها علما مستقلا قائما بذاته له مباحثه وفروعه ومن هذه العلوم ما يأتي :

1- العلوم القرآنية:

اهتمت بالنص القرآني عدة علوم منها تلك التي اشتغلت بتفسيره وشرح مضامينه، من أجل بلوغ مقاصده كعلم التفسير، ومنها تلك التي تعمقت في بيان وجوه إعجازه كعلم الكلام، وعد العلماء أن هذين العلمين من بين أهم العلوم التي تتصل اتصالا وثيقا بالبلاغة وقضاياها منذ نشأتها، وسنعرض لهذه الصلة فيما سيأتي:

أ - علم التفسير والبلاغة:

قد كانت الصلة بين علم التفسير والبلاغة العربية منذ نشأة المحاولات الأولى لعلم التفسير التي اشتملت على ملاحظات بلاغية ذات شأن "فالتفسير علم يهتم في مجمله بتحليل النص القرآني من نواحيه اللغوية والبيانية، وتحليل الجانب البلاغي في القرآن الكريم مستوى من مستويات علم التفسير"[1]، ويعد كتاب التفسير "مجاز القرآن" لأبي عبيدة معمر بن المثنى من المؤلفات الأولى التي تضمنت بعض الآراء والأفكار ذات قيمة بلاغية، حتى أن بعض مؤرخي البلاغة يعدونه أول كتاب في علم البلاغة .

ب - علم الكلام والبلاغة:

تعد قضية الإعجاز القرآني واحدة من أهم القضايا التي عني بها علم الكلام منذ نشأته، وقد كان الجانب البلاغي في القرآن الكريم هو أبرز وجوه إعجازه.

والحقيقة أن قضية الإعجاز القرآني ذات منبت بلاغي، فقد نزل القرآن الكريم على النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - فأنكر كفار قريش كون القرآن وحيا من الله تعالى، فتحداهم بأن يأتوا بمثله، وتدرج معهم في التحدي إلى حد مطالبتهم بالإتيان بسورة من أقصر سوره فعجزوا، ولأن العرب كانوا على قدر كبير من سلامة فطرتهم اللغوية فقد تمكنوا من إدراك الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، وأن في نظمه أشياء تخرج عن استطاعة البشر، وهذا ما عبر عنه أحد أكبر كفار قريش "الوليد بن المغيرة" حين قال :" لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه..."، وواضح من هذه العبارة تذوق الوليد حلاوة القرآن الكريم من خلال بلاغته، فقضية الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم هي التي جعلت من علم الكلام أحد أهم العلوم التي احتضنت نشأة البلاغة العربية وتطورها .

---

[1] - علي عشرى زايد: البلاغة العربية تاريخها ومصادرها ومناهجها، دط، مكتبة الشباب، القاهرة، 1982، ص 13.

2- العلوم الأدبية:

تعد العلوم الأدبية هي المهد الطبيعي الذي احتضن نشأة الدراسة البلاغية، ذلك لأنها اهتمت بالنص الأدبي سواء من ناحية التأريخ له كتاريخ الأدب، أو من ناحية شرحه وتفسيره كعلم الأدب ، والبلاغة ذاتها ليست سوى واحد من تلك العلوم الأدبية، فمحور اهتمامها الأساسي النص الأدبي من حيث تحليل عباراته وتراكيبه تحليلا فنيا[2] .

ومن أبرز مظاهر تأثير العلوم الأدبية على الدرس البلاغي وقتئذ موسوعة الجاحظ "البيان والتبيين"، وعلى الرغم من أن الكتاب لا يشتمل على نظريات بلاغية محددة، وإنما هي أفكار وإشارات بلاغية ضمن كثير من الفنون التي اختلط فيها النقد بالأدب بالبلاغة إلا أنه :"احتوى على مجموعة من أهم الأصول البلاغية الأولى التي قامت عليها دعائم علم البلاغة فيما بعد، والتي جعلت مؤرخي البلاغة يعتبرون الجاحظ واحدا من الآباء الشرعيين لعلم البلاغة"[3].

3 - العلوم اللغوية :

أدت علوم اللغة أيضا دورا أساسيا في نشأة البلاغة العربية، يتمثل هذا الدور في طرق علماء اللغة والرواة قضايا بلاغية، من خلال استنباطهم لقواعدهم ومبادئهم اللغوية من النصوص الأدبية، وإلى جانب ذلك "فإنهم كانوا يعرضون لبعض الجوانب الأسلوبية والتعبيرية في هذه النصوص، لأن مجرد استخلاص قاعدة لغوية من نص ما يقتضي تحليل البناء اللغوي لهذا النص، وتناول الجوانب الأسلوبية فيهن ومن ثم فقد تناثرت هنا وهناك عبر مؤلفات هؤلاء اللغويين بعض الأفكار والملاحظات البلاغية العامة التي كانت بمثابة الأصول الأولى التي قام عليها علم البلاغة"[4]، فقد أشار ابن المعتز في كتابه البديع إلى أن الأصمعي ألف كتابا في التجنيس حيث يقول في تعريفه للتجنيس :"التجنيس هو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام، ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها على السبيل التي ألف الأصمعي كتاب الأجناس فيها"[5] ،وهذه إشارة من ابن المعتز تؤكد دور علم اللغة في نشأة البلاغة العربية.

ثانيا: مدارس البلاغة العربية:

يجمع علماء البلاغة على أن هناك اتجاهين في دراسة البلاغة والتأليف فيها هما : طريقة الأدباء، وطريقة المتكلمين، ولكل طريقة منهما خصائص تميزها عن الأخرى كما سنوضح في الآتي:

1 - المدرسة الأدبية

تحتكم هذه المدرسة إلى الذوق والفن والجمال "وتتميز بالإكثار المسرف من الأمثلة والشواهد الأدبية، والإقلال من البحث في التعاريف والقواعد والاصطلاحات والأقسام، مع الاعتماد على الذوق وحاسة الجمال في تقدير المعاني الأدبية"[6]، وانطلاقا من هذا فهي تتميز بجملة من الخصائص منها :

---

[2] - ينظر : علي عشري زايد :البلاغة العربية تاريخها ومصادرها ومناهجها، سبق ذكره، ص 18 .
[3] - علي عشري زايد :البلاغة العربية تاريخها ومصادرها ومناهجها، سبق ذكر،ص 19.
[4] – المرجع نفسه، ص ص 20، 21 .
[5] – عبد الله بن المعتز: البديع، تحقيق: عبد المنعم خفاجي، دط: القاهرة 1954، ص 55 .
[6] – أمين الخولي: مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، دط، دار المعرفة، 1961، ص 230 .

ـــ الإكثار من الشواهد الأدبية نثرها وشعرها.

ـــــ الإقلال من البحث في التعريفات والقواعد والأقسام.

ـــــ الاعتماد في النقد الأدبي على الذوق الفني، وحاسة الجمال أكثر من اعتمادها على المنطق وسلطان العقل.

ـــ التأكيد على القيمة من حيث أثرها في التعبير، ودورها الجمالي والدلالي[7].

ومن أهم كتب هذه المدرسة: كتاب البديع لابن المعتز، وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، والعمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، والبديع لأسامة بن منقذ، والمثل السائر والجامع الكبير لابن الأثير.

2 ـــــ المدرسة الكلامية:

تستغل هذه المدرسة قوى المنطق، وما أتيح لهم من رياضة عقلية، ومن أهم خصائصها :

ـــ إصدار أحكام عقلية في المسائل البلاغية.

ـــــ الاعتماد على الجدل والمناقشة.

ـــ العناية بالتعريفات والقواعد والانخراط في المعيارية

ـــ الإقلال من الشواهد الأدبية.

ـــ استعمال المقاييس الفلسفية المعتمدة على قواعد منطقية في الحكم الأدبي، دون النظر إلى معاني الجمال وقضايا الذوق[8].

من أهم كتب هذه المدرسة: نقد الشعر لقدامة بن جعفر، دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، الكشاف للزمخشري، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز لفخر الدين الرازي، مفتاح العلوم للسكاكي، تلخيص المفتاح والإيضاح للقزويني، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي .

---

[7] ـــ ينظر : يوسف أبو العدوس: مدخل إلى البلاغة العربية، ط1، دار المسيرة للنشر والتوزيع، العبدلي الأردن، 2007م، ص 24.

[8] ـ ينظر : يوسف أبو العدوس: مدخل إلى البلاغة العربية،سبق ذكره، ص 25 .